لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ

بقلم؛ أبي سعد العاملي

بسم الله الرحمن الرحيم، والعقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله العلي الكبير القائل، مخاطباً أعداءه وأعداء عبادِه المؤمنين، {وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينْ} [الأنفال 29]، والقائل مخاطباً عباده المؤمنين المجاهدين، {كَمْ مِنَ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيَرةً بِإِذْنِ اللهِ، وَاللهَ مَعَ الصَّابِرِين} [البقرة 247].

والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المجاهدين، القائل: (نصرت بالرعب مسافة شهر" وعلى آله وصحبه الأخيار الصابرين وعلى جميع أولياء الله الصالحين حتى يوم الدين، وبعد

من سنن الله عز وجل الثابتة في الدعوات أن جعل النصر والتمكين مقرونا بتوفير الشروط أو العوامل المعنوية قبل المادية {إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ} ونصر الله يتجلى أساساً في التمسك بمنهجه ومن منهجه سبحانه أن يبحث العبد عن أسباب النصر والقوة والغلبة لتحقيقها في الواقع.

كما أن النصر المادي الظاهري يتحقق على أيدي القلة المؤمنة في مقابل الكثرة الكافرة، والناظر إلى سير الأنبياء والمرسلين يلمس هذه الحقيقة جلية ناصعة منذ أن بعث الله أول رسول على وجه الأرض – سيدنا نوح عليه السلام - وصولاً إلى خاتم المرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وانتهاء بكل فئة مؤمنة قائمة على أمر الله حتى قيام الساعة.

جاء في الحديث الشريف قوله عليه الصلاة والسلام: (يأتي النبي يوم القيامة ومعه الرهط ويأتي النبي ومعه رجلان ويأتي النبي ومعه رجل ويأتي النبي وليس معه أحد)، ومن هنا ينبغي الوقوف جلياً عند معاني هذا الحديث. فظاهره يوحي بأن الكثير من الأنبياء لم يستطيعوا استقطاب الأتباع حول دعوتهم أو أنهم لم ينجحوا في إيصال هذه الدعوة باللغة التي يفهمها الناس هذا هو ظاهر الأمر بينما الحقيقة غير ذلك، فحاشى للمؤمن أن يذهب به

الظن هذا المنحى فيمن اختارهم الله عز وجل ليكونوا مصابيح هدى ومثلاً أعلى بل وحجة علينا أو لنا – حسب الموقف الذي سنتخذه من دعواتهم-

الحقيقة التي يغفل عنها الكثيرون هي أن هؤلاء الأنبياء ومن معهم قد جسّدوا تعاليم دعوتهم في أنفسهم أولاً ثم في محيطهم ثانياوكان هذا في حد ذاته كافياً ليتحقق النصر بإذن الله حتى وإن لم يحققوا النصاب المادي في محيط صراعهم {وَما النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، إِنَّ اللهَ عَزِيزُ حَكِيم} [الأنفال 10]. فكان الله سبحانه وتعالى يأمر السنن الكونية وجنوده الأخفياء لتحقيق هذا النصر من حيث لا يدري خصوم الحق ويأتيهم الله من حيث لم يحتسبوا. بل في أغلب الأحيان يأتي هذا النصر حينما يظن أهل الباطل أنهم قادرون ولن يُغلبوا بسبب كثرة عددهم وقوة عتادهم، وفي الوقت الذي يظن فيه أهل الحق أنهم منهزمون لا محالة وأن لا أمل في النجاة وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: {وَلاَ تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونْ} [الأنفال 60] وقوله: {ذلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِين إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرُ لَكُمْ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كُثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ المُؤْمِنِين} [الأنفال 29]، وفي حق المؤمنين يقول رب العزة: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا، جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنْجِي مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِين... الآية}.

نود في هذا المقام أن نقف على حادثين من السيرة النبوية من أهم ما يبرز هذه الحقيقة السالفة الذكر، وهما غزوة بدر الكبرى وغزوة حنين.

قبل وقوع غزوة بدر، أنزل الله سبحانه وتعالى آيات فرض القتال والإذن به {كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرُّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُون، يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالُ فِيه، قُلْ قِتَالُ فِيهِ كَبِيرُ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرُ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْل} [البقرة 214-215] وقد جاء ذلك بعد سرية عبد الله بن جحش، وكانت تعبئة للنفوس للمعركة الحاسمة مع قريش. فوضعت هذه الآيات نفوس العصبة المجاهدة من المهاجرين والأنصار في تعبئة كاملة، كما أن آيات أصحاب طالوت رفعت المد الشعوري للمواجهة، وبينت كيف ينصر الله تعالى القلة على الكثرة،

{قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينْ} [البقرة 247].

لم نجد في استعداد المسلمين ما يشير- من قريب أو بعيد - إلى أن النصر سيكون في جانبهم فقوتهم ليست مناظرة لقوة قريش، وعددهم ليس بمتكافئ مع عدد قريش بل كانت قريش في مركز الثقل كذلك. وزين لها النصر غرورها وخيلاؤها، وما تتمتع به من استعداد وطول.

أما المسلمون فقد هُدوا إلى الترفع عن المادة، وتفريغ القلب من الحطام، ووُجِّهوا إلى الثقة بالله، والتعلق به في إخلاص وتجرد.

وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم من العريش الذي نصب له يتفقد جيشه بنفسه، وينظم صفه ويقوي من رباطة جأشه، ويشد بروحه من عزمه، ويسدي إليه النصح، ثم هو يخطب فيهم محرضاً على القتال والاستشهاد في سبيل الله، ويبشرهم بالجنة فيقول: (لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة).

وتقع الكلمات النبوية في النفوس موقعها الملائم، فيتعجل بعض الصحابة الموت، حتى ما ينتظر تناول تمرات وهي في يده، فيهرع إلى الموت يقاتل بغير زاد حتى يقتل.

ويدلف النبي عليه الصلاة والسلام إلى عريشه يدعو الله، ويلح في الطلب، ويبالغ في الابتهال والتضرع.. لقد صدق المؤمنون ربهم في الجهاد، وأخلصوا له بقلوبهم، فهيأ لهم أسباب النصر المادية والمعنوية:

1) وعدهم إحدى الطائفتين: العير الذي أرادوه، أو النصر الذي أراده الله لهم.

2) غشاهم النعاس حتى أمنوا واطمأنوا، وشاعت الثقة في جوانب أنفسهم.

3) أرى الله نبيه في نومه قلة عدد عدوه ليشد من عزمه ويقوي قلبه.

4) أنزل الله عليهم الماء من السماء، فتلبد الرمل تحت أقدامهم، وصلح تنعلهم فوقه في رفق ويسر، وثبتوا

فـي مـواقعهم، ولكـن توحـل موقـع المشـركين، فتخوضـوا بالوحل وساءت حالتهم.

5) أراهم العـدو قليلاً حيـن المواجهـة لكيلا يفزعـوا، وأرى عدوهم المسلمين قلة، وكانوا كذلك، لكـي يسترسـل ويتمـادى فـي صـلفه وطغيانه وعتـوه {وَإِذْ يُرِيكُمُـوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِـمْ لِيَقْضِـيَ اللَّـهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً} [الأنفال 44].

6) أرسل جنداً من عنده، تحارب مع المؤمنين تنفث في قلوبهم حرارة اليقيـن وتغريهـم بـالهجوم والتقتيـل {إذ يـوحي ربـك إلـى الملائكـة أنـي معكـم فثبتـوا الـذين آمنـوا سـألقي فـي قلـوب الـذين كفـروا الرعـب فاضـربوا فـوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان..} [الأنفال 12-13].

وهكـذا وثـق المسـلمون بربهـم، وقـاتلوا بالإيمـان مستبسلين، واستماتوا في طلب الشهادة، وركنـت قريـش إلى صلفها وغرورها واستنصرت بكبريائها وعزتها، وقـاتلت فـي سـبيل الشـيطان، بيـن الكـؤوس والثغـور والمعـازف فانهزمت مخلفة وراءها قتلى وأسرى فيهم رؤوسها، وكتب النصر الحاسم للمسلمين،وتمـت كلمـة ربـك {إِنْ تِنْصُـرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ} [محمد 7] [صور من الجهاد النبوي في المدينة ص 62-64].

وكان من القدر الرباني أن يقع مهلك طالوت على يـد الغلام داود، ومهلك الطاغية فرعون هذه الأمة – أبو جهل – على يد غلامين من المسلمين، وها نحن نـرى التاريـخ يعيـد نفسه على أرض أفغانسـتان والشيشـان وفلسـطين حيـث يسـقط كبـار العسـكريين – قتلـى أو أسـرى – علـى أيـدي مجاهدين لا يقيم لهم هؤلاء الأعداء أي وزن مادي أو دنيوي، ولا يملكون من الألقاب الجاهلية أي رصيد، سوى الـدرجات العلا عند الله، التي يسـتخف بهـا أعـداؤهم ولا يقيمـون لهـا وزناً.

أما في غزوة حنين فقد تجمعت للمسلين كل العناصر المادية لتحقيق النصر والغلبة حيث جاءت مباشرة بعد فتـح مكة وهو فتح ونصر عظيـم وبعـد أن جـاءت أغلـب القبائـل العربيـة للبيعـة والـدخول فـي الاسـلام وتكسـرت شـوكة المشركين في مكة الذين كانوا يعتبرون رأس الرمح للكفر والشرك في جزيرة العرب وكانوا يمثلون العقبة الأساسـية والكبرى في دخول الناس فـي ديـن اللـه. فلـم يبـق حينئـذ

سوى قبائل هوازن وثقيف ومعهما بعض القبائل الصغيرة التي أعدت العدة لقتال المسلمين ومحاولة السيطرة على الزعامة السياسية والدينية في الجزيرة بعد انكسار شوكة قريش.

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله تعالى: (هذه هي المعركة التي اجتمع فيها للمسلمين – للمرة الأولى- جيش عدته اثنا عشر ألفاً فأعجبتهم كثرتهم، وغفلوا بها عن سبب النصر الأول، فردهم الله بالهزيمة في أول المعركة إليه ثم نصرهم بالقلة المؤمنة التي ثبتت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتصقت به) اهـ [في ظلال القرآن ص 1617].

ويضيف فيقول: (إن معركة حنين لتعرض نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد عن قوة غير قوته، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية. حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة. إن الكثرة العددية ليست بشيء، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة. وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً في الهزيمة، لأن بعض الداخلين فيها، التائهين في غمارها، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها، تتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة، فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله، انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة.

لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة، لا بالزبد الذي يذهب جفاء، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح) اهـ [في ظلال القرآن 1618].

لا تزال هذه السنة قائمة إلى اليوم وحتى تقوم الساعة، فالقلة هي التي تقوم بواجباتها تجاه هذا الدين، وهي التي يحفظ الله بها دينه ومنهجه ليتحقق قوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، وكما يقول عليه الصلاة والسلام، عن ثوبان رضي الله عنه يرفعه: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من يخذلهم حتى يأتي أمر الله) [الترمذي 2229]، ومن أهم صفاتهم أنهم مقاتلون في سبيل نصرة هذا الحق والحفاظ على بيضته.

فعن عمران بـن حصـين رضـي اللـه عنـه يرفعـه: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال) [أبو داود 2484 وأحمد 4/437].

بعـد هـذه المقدمـة التمهيديـة، نصـل الآن إلـى بيـت القصيد في هذا المقال وهو التطبيق العملي لهذه القاعــدة والسنة الربانية فـي هـذا العصـر ونقـف مـع بعـض النمـاذج المعاصرة التي جسدت هذه السنة في أجل صورها فجعلها الله تعالى حجة على الجموع الغفيرة من أمة الإسلام الـتي تقــف فــي موقــع المتفــرج وتبخــل علــى هــذه الطوائــف المنصورة حتى بالدعاء والقليل يقف منها موقـف المناصـر بالمال والنفس كما هو مطلوب شرعاً وعقلاً.

تعتـبر الطائفـة المنصـورة فـي أفغانسـتان أهـم هـذه الطوائف وذلك بسبب أهمية وثقل المعركـة الـتي تخوضـها وكـذلك بسـبب أهميـة وثقـل العـدو الـذي تـواجهه، دون أن ننسى الطوائف الأخرى (في كشمير والفلـبين وإندونيسـيا وإرتريا والجزائر وغيرها) التي تحتاج -كل واحدة منها- إلى مقال مستقل بل إلى بحث مفصل لعلنـا نوفيهـا بعضـاً مـن حقها الملقى على أعناقنا.

فطائفة الحق في أفغانستان وفقها الله لإقامـة دولـة الحق، فقدمت للعالم أجمع نموذجـاً لدولـة الاسـلام، وهـذه هي الخاصية التي تتميز بها عن بقية طوائف الحـق القائمـة على أمر الله في هذا الزمان فأحبها من أحبهـا والتحـق بهـا وساندها وناصرها وأصبحت هذه الإمارة الاسلامية فئـة كـل مؤمن صادق وملاذاً لكل المجاهدين الشرفاء، وأبغضها من أبغضـها فنصّـب لهـا العـداء وشـارك فـي حربهـا بغضـاً لهـا وخوفاً من أن ينتشر نور الحق الذي تحمله في هـذه الأرض فيزيل ظلامهم الـدامس ويزهـق بـاطلهم وتنتهـي سـاعتهم كما انتهت ساعة أسلافهم من قبل.

لقد جمع هـؤلاء الصـليبيون جمـوعهم وأتـوا بخيلائهـم وتصــريحاتهم العنتريــة للقضــاء علــى دولــة الاســلام فــي أفغانستان، وظنـوا أن المعركـة سـتدوم أيامـاً معـدودة ثـم ينتهي الأمر وتخلو لهـم السـاحة لنشـر بـاطلهم والسـيطرة على ثروات المسلمين وعقولهم.

فكانت المعركة في أفغانستان بين الكثرة المغــرورة بـالقوة الماديـة والعدديـة مـن جهـة وبيـن القلـة المؤمنـة

المعتزة بقوة الإيمان وحسن التدبير والتنظيم والتوكل على الله عز وجل والإخلاص له سبحانه، فتحقق لهذه الفئة ما تحقق للفئة الأولى في بدر، حيث لم يستطع عدوهم تحقيق أي هدف من الأهداف التي جاء من أجلها [يراجع في هذا مقالات أخينا أبو عبيدة القرشي؛ "من يهزم من في أفغانستان؟"، و "القاعدة وفن الحرب"].

بينما استطاع المجاهدون أن يحافظوا على راية الجهاد عالية خفاقة على أرض أفغانستان وحية متقدة في قلوب الملايين من المسلمين وعلى رأسهم هذه الطوائف المقاتلة هنا وهناك، ولا زالت الحرب دائرة، ولا زال العدو يحاول ويعاود الكرة ويمنّي نفسه وأولياءه أنه حقق ما جاء من أجله وسوف يحقق بقية النصر الموهوم عما قريب بينما يتكبد في الواقع الفعلي الخسائر تلو الخسائر، وكل يوم يمرُّ عليه وكأنه سنة بأكملها، لا يدري كيف يخرج من هذا المستنقع حيث تحول الصياد إلى فريسة وسقط في الشراك التي أراد أن يوقع فيها تلك العصابة المقاتلة.

لقد انتصرت القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، ولم يستطع هؤلاء الكفار إلا أن يلحقوا الأذى المادي بالمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، بينما تلقوا دروساً في التصدي والمقاومة وتلقوا ضربات موجعة في العتاد والأرواح وبالرغم من مشاركة آلياتهم الإعلامية في التعتيم والكذب ومواراة هذه الخسائر، فإن الناس قد علموا ما أصابهم من القرح والهزيمة والذعر، وها هم أولاء يستعدون للخروج من أفغانستان ويوقفون حملاتهم العشوائية تحت ضغط المجاهدين، خاصة بعدما سقط منهم العديد من الأسرى بأيدي الطائفة المنصورة.

ونفس الكلام ينطبق على بقية الطوائف المقاتلة في بقية الجبهات، ففي الشيشان نجد إخواننا المجاهدين قد ابتكروا أساليب جديدة ونوعية في حرب العصابات، تعذر على القوات الروسية فهمها واستيعابها فضلاً عن مقاومتها وإيقافها، فترى العصابات القليلة العدد تحدث الشرخ والقرح والإثخان في أعتى وأقوى الجيوش في العالم، وتحول الجيش المدجج بأحدث الأسلحة إلى مجرد أرانب تصطادها سواعد المجاهدين كل يوم متى وكيف شاءت. وكل يوم يمر يقترب فيه المجاهدون من النصر والتمكين ويتقهقر فيه العدو الغاصب جاراً أذيال الهزيمة تاركاً وراءه قتلى وغنائم تزيد من ضعفه ويتقوى بها المجاهدون على

مواصلة طريق الجهاد، ليكون حتف هؤلاء الأعداء بسلاحهم، ويتحقق عليهم قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُون، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [الأنفال 36].

وفي فلسطين نجد الشباب المجاهد قد صعّد من وتيرة جهاده وطوّر أساليبه، بالرغم من وجود طابور خامس عميل يحرسه ويحاول إيقاف عملياته ضد اليهود، فلجأ المجاهدون إلى العمليات الاستشهادية التي تُعتبر ذروة سنام الجهاد، حيث لم يتمكن العدو ولا عملاؤه من السيطرة على هذا السيل الجارف من الاستشهاديين، تاركين وراءهم العشرات من القتلى والجرحى في صفوف الجيش اليهودي ومستوطنيه، فيتحقق قوله تعالى {وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ}، فمهما ملكوا من سلاح وعتاد وجيوش جرارة من الجند والعملاء، فلن يوقفوا هذه العمليات النوعية، وبها يقترب المجاهدون من النصر يوماً بعد بعد، إذا أحسنوا تعاملهم مع العملاء من حولهم وعرفوا كيف يميزون صفوفهم، حتى يبقى النصر بأيديهم وتكون كلمة هي العليا وكلمة الذين كفروا – من اليهود والمرتدين – هي السفلى.

هذه بعض النماذج التي أردت أن أقف أمامها، لنذكِّر أنفسنا بهذه الحقيقة الكبرى التي غفلنا عنها وكدنا أن ننساها حقيقة أن القلة المؤمنة الصابرة تنتصر على الكثرة الكافرة المغرورة، وبأن العدة المادية ما هي إلا سلاح ثانوي إلى جانب السلاح الأول وهو العدة الإيمانية {وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِين}.

عن مجلة الأنصار

منبر التوحيد والجهاد
sw.dehwat.www
moc.esedqamla.www
ofni.hannusla.www

تم تنـزيل هذه المادة من منبر التوحيد والجهاد

تم تنـزيل هذه المادة من منبر التوحيد والجهاد

w.dehw
dqamla.
منبر التوحيد وال
sw.dehwat.www//:ptth
c.esedqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth